(٨٦) علي الحُصْري[١]

ذكر الشيخ أبي الحسن علي بن إبراهيم الحُصْري رحمة الله عليه:

كان رحمه الله شيخَ العراق، ولسانَ القوم في وقته، وكان عجيبَ الحال، وصاحبَ عبارات عالية.

وكان بصريًا سكن ببغداد.

وصحب الشِّبلي، وكان مُعتبرًا في عهده.

مات ببغداد سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة.

نقل أنَّ طائفةً من المُفسدين سعوا في حقِّه عند الخليفة، وقالوا: قد اجتمعَ عليه قومٌ يسمعون الغناء، ويرقصون ويطربون. فصادفَهُ الخليفةُ يومًا، وهو في الصحراء، فقال له: ما مذهبُك يا حُصيري؟ قال: أوّلُ الأمر كنتُ على مذهب أبي حنيفة، ثم انتقلت إلى مذهبِ الشافعيِّ، والآن أنا مشغولٌ بشيءٍ لا أذكرُ مذهبًا. قال الخليفة: وما هو؟ قال الحُصْري: التصوف، ألاَّ يطمئنَّ الصُّوفيُّ في الدارَيْنِ بشيءٍ سوى الله تعالى، ولا يستريحَ بما سوى الله تعالى، ويفوّضُ أمورَه كلَّها إليه، وهو بفضله يتولاّها. قال الخليفة: وبعد ذلك؟ قال الحُصْري: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] فقال الخليفةُ لأصحابه: لا تشوُّشوا على هذا القوم، فإنّهم كبارُ الأمة.

---

(١) طبقات الصوفية ٤٨٩، تاريخ بغداد ١١/ ٣٤٠، الرسالة القشيرية ١١٧، الأنساب ٤/ ١٥٢، مناقب الأبرار ٨٥٨، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٢٠، طبقات الأولياء ٢١٣، البداية والنهاية ١١/ ٢٩٨، نفحات الأنس ٣٤٠، طبقات الشعراني ١/ ١٢٣، الكواكب الدرية ٢/ ١١٣.

نقل عن أحمد بن نصر أنّه بعد أن حجَّ ستين حجَّةً، وكان يُحرمُ[1] من خراسان، اتّفقَ له أن حدَّثَ في الحرم الشريف حديثًا كأنه كان مطعونًا، وكان هناك يومئذٍ مئتان وثمانون من المشايخ، فكلُّهم اتفقوا على منعِهِ وزجره، وطردوه من الحرم الشريف، فخرج أبو الحسن الحُصْري تلك الساعة من بيته ببغداد، وأشار إلى شخصٍ من الخدَّام بأنَّ أحمدَ بن نصر إذا جاء إلى بغداد، وأرادَ الحضورَ إليه، أن يمنعَهُ من الدخول عليه، والحالُ أنَّ أحمدَ بن نصر كان من أصدقاء الشيخ، ويزورُهُ كلَّ سنةٍ في سفره للحجِّ، ثم بعد مدّةٍ جاء أحمد بن نصر إلى باب الحُصْري رحمه الله، وأرادَ الدخول، منعَ ذلك الخادمُ، وقال: لا طريقَ لك إليه. قال: لِمَ؟ قال الخادم: لأنَّ الشيخَ من البيت في اليوم الفلاني، في الساعة الفلانية أمرني بهذا المنع. فعليه أحمدُ أنّه كان من اليوم الذي طردوه من الحرم، وفي تلك الساعة، فخرج أحمدُ على وجهه، وأُغمي عليه، وبقي على تلك الحالة أيامًا، ثم طلعَ الشيخُ الحُصْري يومًا، وقال: يا أحمد، ما جرى عليك ما جرى إلاّ لأجلِ إساءتك الأدبَ في الحرم الشريف، وحصلَ لك سقوطٌ عن نظر المشايخ، وليس لك إلاّ تدبيرٌ، الآن تمشي إلى بعضِ نواحي الروم بين الكفّار، وترعى الخنازير سنةً، وبالليل تدخلُ مكانًا خرابًا، وتُصلّي إلى الصبح، وإيَّاكَ وأن تنامَ لحظةً، لعلَّ اللهَ تعالى يُميلُ إليك قلوبَ عباده الصالحين. فقبلَ أحمدُ بن نصر كلامَ الحُصري رحمهم الله، وتوجَّهَ إلى الروم، وغيّرَ زِيَّهُ ولباسه، ولبسَ ثياب المذلَّة، واشتغلَ سنةً يَرعى الخنازير، وكان يأوي بالليل إلى خربةٍ، ويشتغلُ بالعبادة، ثم بعد تمام السنة رجعَ إلى بغداد، وجاء إلى باب الشيخ الحُصْري رحمه الله، فقال له الخادم الذي منعَهُ أولاً عن الدخول: استعجلْ؛ فإنَّ الشيخَ اليومَ طلعَ من البيت سبع مرات، ولم يكن طلوعُهُ إلاّ انتظارًا لقدومك، واستقبالاً لك. فلمّا سمعَ الشيخُ صوته عرفه، وخرجَ إليه عاجلاً، واحتضنَهُ ورحَّبَهُ، وفرح به، وقال: يا أحمد، أنت ولدي، وقرّةُ عيني. فأحمدُ من غاية سروره توجَّه إلى مكة، وقطعَ البادية

(١) في الأصل: وكا يحرم.

حتى وصلَ إليها، فاستقبلَهُ المشايخُ، وأعزُّوه، وأكرموه، وكلٌّ منهم قال له: ولداه، وقرّةَ عيناه. ولم يصدرْ منه ذنبٌ سوى أنه حدَّثَ في الحرم حديثًا مطعونًا، ونسبوا إليه سُوءَ الأدب. والمنكرون نهوه عن ذلك وأدّبوه كما سمعتَ، والآن نرى الجهلة المتيسّرين يرى أهلُ العلم يذكرون المنكرات في الأسواق ولا ينكرُ عليهم أحد[١].

أقول: اليومَ ترى طائفةً مزوّرين[٢] يسعون في إفسادِ الدِّين، ومخالفةِ الشريعة لسيد المرسلين لأجل أغراضِهم الدُّنيوية، وهم يَحسبون أنَّهم يُحسنون صنعًا، فسحقًا لهم وجدعًا، إذ لا يخافون لومةَ لائمٍ، ولا يفزعون الأخذ بالجرائم، أعاذنا الله تعالى عن مَكائدِ النفس، ومَصائد الشيطان، فإنّه المُستعانُ، وعليه التُّكلان. [والله أعلم].

نقل أن أبا الحسن الحُصْري رحمه الله قال: كنتُ وقت السحرِ في مناجاةٍ مع الله تعالى، فقلت: إلهي، ليتني أَعلمُ، هل أنت راضٍ منِّي أم ساخطٌ؟ فإنّي راضٍ منك. فسمعتُ هاتفًا يقول: يا كذَّابُ، لو كنتَ أنت منَّا راضيًا لما طلبتَ رضاءنا.

ونقل أنه قال رحمه الله: لا يتكلّمُ الحُصْري بالقوافي، ولكن لي أورادٌ من أيام الشباب، لو تركتُ منها ركعةً لعوتْبتُ عليها، وعُوقبت على تركها.

وقال: أصولُ التوحيد خمسةُ أشياء: رفعُ الحدث، وثباتُ القدم، والمهاجرةُ عن الوطن، ، والمفارقةُ عن الإخوان، ونسيانُ ما تعلم وما لا تعلم.

أقول: المرادُ برفع الحدث هو: الطهارةُ عن الحدثِ الأكبر والأصغر، والمرادُ بالحدث الأكبرِ هنا هو الشِّرك، وبالحَدَثِ الأصغر سائر الذنوب والمعاصي. أو المُرادُ بهما: الاغترارُ بزخارف الدنيا، ومُتابعة النفس في

---

(١) كذا في الأصل، ولعلّ الصواب: والآن يَرى أهل العلم الجهلة يذكرون المنكرات في الأسواق، ولا ينكر عليهم أحد.

(٢) كذا الأصل: وتقرأ: طائفة مغرورين.

ميولها. والمراد بثبات القدم هو: الصبرُ على ذلك. والمُراد بنسيان ما تعلم وما لا تعلم: تركُ ما يتعلّق به القلم[١] ويحيطُ به، سواءً كان في الاستقبال أو في الحال، وتحققت[٢] الأصول تشرقُ شمسُ التوحيد من أُفق الغيب، ويستنيرُ بها قلبُ العارف، ويزداد بالمعرفة إيمانًا وعلمًا وإيقانًا، وهناك يصلُ ألمُ المريض إلى الطبيب، والمحبِّ إلى المحبوب، رزقنا الله تعالى. [والله أعلم].

وقال: إنَّ الله تعالى خلقَ آدم بلا واسطةِ الغير، وأسجدَ له الملائكةَ، ثم أمره بأمرٍ ـ يعني نهاه عن أكل الشجرة ـ فما انتهى، وخالف النهي، فلمّا كان أول الجرعة دُرْدِيًّا[٣] فما ظنُّكَ بآخرها. يعني: إنْ خُلّي الإنسانُ مع طبعه فلا يصدرُ عنها إلاَّ العناد والمخالفة، وإن لوحظَ بعين العنايةِ، فلا يظهرُ منه إلاّ المحبةُ والموافقة.

وقال: من لم يضربْ بسيف الإنكارِ رأسَ ماله اسم ورسم[٤].

و: [إن] لم تجعلْ ساحةَ قلبك عن كلِّ مقولٍ ومعلومٍ خاليةً، لا تظهرُ ينابيعُ الحكمة عن قعر قلبك.

وقال: من ادّعى في شيءٍ من الحقيقة، كذَّبته شواهدُ كشفِ البراهين.

وقال: القعودُ مع التدبُّرِ والتفكُّر في حالِ المشاهدة ساعةً خيرٌ من ألف حجَّةٍ مقبولة.

وقال: القعودُ على هذه الصفة خيرٌ من ألفِ سفر.

وقال: سألتُ بعضَهم عن الزهد، فقال: تركُ ما أنتَ فيه لِمَا أنت له.

وسُئل الحُصْري رحمه الله عن الطائفةِ الملاماتية[٥] ـ وهم الذي تركوا زينةَ

---

(١) كذا الأصل، ولعلّها: يتعلّق به القلب.

(٢) كذا الأصل، ولعلّها: وبتحقيق الأصول.

(٣) الدُّرْدِيُّ: ما يركد في أسفل كل مائع كالأشربة والأدهان والزيوت. اللسان.

(٤) كذا، ولعلها: رأسه ما له اسم ولا رسم.

(٥) تقدم التعريف بها صفحة (٤٠٢) الحاشية (٣).

الظاهر ـ فشهق شهقة، وقال: لو كان في دُورنا نبيٌّ لكان منهم.

وقال: ما أعملُ بسماعٍ مُنقطع، بل السماعُ هو أن لا ينقطعَ سماعٌ عن سماعٍ.

أقولُ: المرادُ بالسماع المُتَّصلِ الذي لا ينقطع هو السماعُ بسمعِ الباطن، المُستمدُّ من الفيض الرحماني الدائم الثابت أزلاً وأبدًا، وبالمَسموع الواردات والإلهامات.... التي لا.... لها[1] ولا نهاية، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] لا يسمعُ الظاهر الذي هو آلةٌ جسمانية وهي عصبةٌ مغروسةٌ في مقعر السماع على هيئة نسيجِ العنكبوت، تُدركُ الأصواتَ عند وصول الهواء المتموّجِ المتكيّفِ بكيفية ذرِّ الصوت، شرط تطلّع أو قرع عينيه لها، لأنَّ هذا السمعَ يتغيَّرُ بتغيّرِ الآلة، وينقطعُ عند طروءِ الآفة لها، بخلاف الأول. [والله أعلم].

وقال رحمه الله: الصوفيُّ من إذا فنيَ عن شيءٍ ـ أي تركه بقلبه ـ لا يرجعُ إليه أبدًا، وإذا توجَّه إلى الله تعالى فلا يرتدُّ عنه، ولا يُعرضُ عنه أبدًا، ولا تُؤثّرُ فيه حادثةٌ من الحوادث أبدًا.

وقال رحمه الله: **الصوفيُّ من لا يجد مَوجودًا بعد عدمه، ولا معدومًا بعد وجوده.**

أقول: وهذا الكلامُ قريبٌ من الأول، ومعنى قوله: من لا يجد موجودًا بعد عدمه، أنه إذا تركَ شيئًا، وانعدمَ عنه، يبقى في هذا الانعدام، ولا يرجعُ إلى الحالةِ الموجودة أولاً، ثم بعد الانعدام إذا توجَّه إلى الله تعالى، وحصلَ له وجودُ هذا التوجّه، فلا يرجعُ إلى الحالةِ المعدومة أولاً، وهذا معنى قوله: ولا معدومًا بعد وجوده. [والله أعلم].

وقال رحمه الله: الصوفيُّ وجده وجوده، وصفاتُه حجابه.

---

(١) كلمتان لم أتبينهما.

أقول: معناه أنَّ العارفَ إذا نظرَ إلى وجودِ الحقِّ وجدَ وجوده فانيًا عنده؛ بل وجودَ جميع الكائنات، وقالوا: إذا فنيَ فحينئذٍ يَصيرُ موجودًا بالاستمدادِ من وجودِ الحقِّ، وإلاّ فليسَ بموجودٍ. يعني: إذا نظرَ إلى وجوده يَجده معدومًا في حدِّ ذاته، وإذا نظرَ إلى صفاتِ نفسه يَصيرُ محجوبًا بصفاته عن الحقِّ جلَّ جلاله، ولذا قيل: بقاءُ العارف في فنائه، وفناؤه في بقائه، ووجودُه في عدمه، وعدمه في وجودِهِ، قال الشاعر:

فوجدي له وجْدٌ بوجدِ وجودِهِ ووجدُ وجودِ العاشقين لَهيبُ

[والله أعلم]..

وقال رحمه الله: التصوُّفُ صفاءُ القلبِ عن المخالفات.

وقال: ما دامَ الكونُ موجودًا فالتفرقةُ موجودة، فإذا غابَ الكونُ ظهرَ الحقُّ، وهو حقيقة الجمع.

أقول: يعني: ما دام العارفُ له نظرٌ والتفات إلى الدنيا، لا يتجلّى له الحقُّ، ولكن إذا عبرَ عن هذا المقام، ولم يَبقَ للدنيا وجودٌ واعتبارٌ من نظره، فحينئذٍ يتجلّى له الحقُّ على قدرِ تجرُّده، فكلَّما كانَ تجرُّدُهُ أقوى، كان التجلّي أقوى له، وكلّما كانَ أضَعفَ [كان التجلّي أضعفَ له]، وهذا يُسمّى الجمع، والأول التفريق. [والله أعلم]..

نسألُ الله تعالى أن يفيضَ عليه سلسالَ رحمته، وزُلال مغفرته ورضوانه، وأن يشرحَ ببركته صدورَنا بنور الإيمان، ويُجنِّبنا عن الزيغِ والضلالة والغواية، ومتابعة النفس الأمارة والشيطان، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله أجمعين.

* * *